Middle East Journal of Humanities and Cultural Studies
Homepage: http://meijournals.com/ar/index.php/mejljs/index
ISSN: 2710-2238 (PRINT)
ISSN: 2788-4686 (ONLINE)
مجلة الشرق الأوسط
للعلوم الإنسانية والثقافية
MESR
منار الشرق للدراسات والأبحاث
Manar Elsharq for Studies & Research

أبعاد الظّلم في شعر رشيد أيّوب

ميشال زعرور [1]

دكتوراه في اللّغة العربيّة، من جامعة القدّيس يوسف في لبنان.

استلام البحث:17-09-2025 مراجعة البحث :17-10-2025 قبول البحث:11-11-2025

الملخص

يتناول هذا البحث تجربة رشيد أيّوب الشّعريّة في تمثيل الظّلم ورصد تجلّياته في سياق سياسيّ واجتماعيّ مضطرب، عاشته البلاد العربيّة تحت الحكم العثمانيّ، وينطلق من إشكاليّة رئيسة تتمحور حول الكيفيّة التي صوّر بها أيّوب مظاهر الاستبداد والحرمان، وما الدّلالات الفكريّة والجماليّة التي انطوى عليها هذا التّصوير، ساعيًا إلى الكشف عن البعد الثّوريّ والإنسانيّ في شعره.

وقد استند البحث إلى المنهج الوصفيّ التّحليليّ لرصد نصوص الشّاعر وتحليل رموزها وصورها البلاغيّة، وربطها بسياقها التّاريخي والفكريّ؛ فجاءت النّتائج لتؤكّد أنّ رشيد أيّوب تجاوز البعد التّوثيقيّ المحض إلى بناء خطابٍ شعريّ مقاوم، زاوج فيه بين النّقد السّياسيّ والتّمرّد الوجدانيّ، وبين الألم الجمعيّ والحلم التّحرّريّ، مستحضرًا قيم الكرامة والحرّيّة، بوصفها مرتكزاتٍ أساسيّةً لمواجهة الاستبداد.

كما تبيّن أنّ الشّاعر، على الرّغم من قتامة الواقع الذي صوّره، ظلّ وفيًّا لرؤية تفاؤليّة تؤمن بقدرة الشّعوب على النّهوض، واستعادة إنسانيّتها؛ ليقدّم نصًّا شعريًّا متكامل الأبعاد، يجمع بين الموقف الثّوريّ والبناء الفنّيّ، ويعكس وعيًا عميقًا باللّحظة التّاريخيّة، وبالوظيفة التّحرّريّة للأدب.

الكلمات المفتاحية: الظّلم – الحريّة – الأدب المهجريّ – القمع – رشيد أيّوب

Abstract:

This study explores the poetic experience of Rashid Ayyoub in depicting oppression and tracing its manifestations within the turbulent political and social context of the Arab world under Ottoman rule. The research centers on the main question of how Ayyoub represented tyranny and deprivation، and what intellectual and aesthetic dimensions underlie this representation، aiming to uncover the revolutionary and humanistic aspects of his poetry.

Employing the descriptive-analytical method، the study examines Ayyoub's poems، analyzing their symbols and rhetorical imagery while linking them to their historical and intellectual context. The findings reveal that Ayyoub transcended mere documentary expression to construct a poetic discourse of resistance that combined political critique with emotional defiance، intertwining collective suffering with the dream of liberation، and invoking the values of dignity and freedom as essential pillars in confronting oppression.

Moreover، despite the darkness of the reality he portrayed، Ayyoub maintained an optimistic vision، believing in the people's ability to rise again and reclaim their humanity. Thus، his poetry presents a comprehensive text that unites the revolutionary stance with artistic construction، reflecting a profound awareness of both the historical moment and the emancipatory role of literature.

Keywords: Oppression – Freedom – Mahjar Literature – Repression – Rashid Ayyoub

المقدمة

يُعَدّ رشيد أيّوب واحدًا من الأصوات الشّعريّة البارزة في أدب المهجر، فقد مثّل مع جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وغيرهما من شعراء الرّابطة القلميّة ملامح التّجديد في الشّعر العربيّ الحديث. غير أنّ ما يميّز رشيد أيّوب –على نحو خاصّ– هو نزوعه الثّوري واحتفاؤه بقيم الحرّيّة والعدالة، في مقابل تصويره الحادّ للظّلم والاستبداد، فقد عاش الشّاعر زمنًا عربيًّا مضطربًا، تتنازعهُ رياحُ التّسلّط العثمانيّ، وتتصاعد فيه أصوات التّحرّر والانعتاق، فكان شعره مرآةً لتلك المرحلة بكلّ ما حملته من آمال وانكسارات.

[1] دكتوراه في اللّغة العربيّة، من جامعة القدّيس يوسف في لبنان.

ويكشف الدّيوان الشّعريّ لرشيد أيّوب أنّ تيمة الظّلم لم تكن مجرّد موضوع عابر، بل شكّلت محورًا أساسيًّا في تجربته الإبداعيّة، وامتزج فيه الذّاتيّ بالجمعيّ، والفنّيّ بالتّاريخيّ؛ ففي قصائده تتجلّى صرخات المقهورين، وآهات الشّعوب المستعمَرة، ونبض الثّائرين الباحثين عن الكرامة والعدل. ومن هنا، تأتي أهمّيّة هذا البحث الذي يسعى إلى الغوص في عالمه الشّعريّ، للكشف عن ملامح الظّلم ودلالاته وصوره الفنّيّة والفكريّة.

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى ما يأتي:

- الكشف عن الكيفيّة التي صوّر بها رشيد أيّوب مظاهر الظّلم والاستبداد في سياق سياسيّ واجتماعيّ مضطرب.
- تحليل الدّلالات الفكريّة والجماليّة الكامنة في خطابه الشعريّ، وبيان مدى تداخله مع قضايا الحرّيّة والكرامة الإنسانيّة.
- إبراز البعد الثّوريّ والإنسانيّ في تجربة الشّاعر، وكيف زاوج بين الألم الجمعيّ والحلم التّحرّريّ في نصوصه.
- دراسة العلاقة بين البنية الفنّيّة في شعره، ورؤيته النّقديّة والتّحرّريّة، للكشف عن الوعي التّاريخيّ الذي انطوت عليه قصائده.
- توضيح حضور الرّؤية التّفاؤليّة في شعره، على الرغم من قتامة الواقع، ودورها في تشكيل خطاب شعريّ مقاوم ومؤمن بقدرة الشّعوب على النّهوض.

مشكلة البحث

تتمحور مشكلة هذا البحث حول الكيفيّة التي مثّل بها رشيد أيّوب مظاهر الظّلم والاستبداد في سياق سياسيّ واجتماعيّ مأزوم، عاشته البلاد العربيّة تحت الحكم العثمانيّ، وما انطوت عليه تجربته الشّعريّة من أبعاد ثوريّة وإنسانيّة وجماليّة؛ فالواقع القاتم الذي صوّره أيّوب أثار إشكاليّة نقديّة، وفكريّة أساسيّة تتمثّل في فهم العلاقة بين الخطاب الشّعريّ عنده، والظّروف التّاريخيّة التي شكّلت ملامحه، وبين الموقف التّحرّريّ، والرّؤية الجماليّة التي صاغ من خلالها معاناة الإنسان وتطلّعه إلى الحرّيّة والكرامة.

أسئلة البحث

ينطلق البحث من الأسئلة الآتية:

1. كيف صوّر رشيد أيّوب مظاهر الظّلم والاستبداد في شعره في ظلّ الواقع السّياسيّ والاجتماعيّ المضطرب؟
2. ما الأبعاد الفكريّة والإنسانيّة التي انطوت عليها نصوصه الشّعريّة، وكيف عبّرت عن التّمرّد والتّحرّر؟
3. ما الدّلالات الجماليّة والرّمزيّة التي استخدمها الشّاعر في تصويره للواقع، وكيف أسهمت في بناء خطاب شعريّ مقاوم؟
4. ما موقع الرّؤية التّفاؤليّة في شعر رشيد أيّوب، وكيف أسهمت في موازنة قتامة الواقع مع الحلم بالحرّيّة والنّهوض؟
5. كيف تكاملت الرؤية الثوريّة مع البنية الفنيّة في شعره لتقديم نصّ شعريّ يجمع بين الموقف النقديّ والقيمة الجماليّة؟

منهج البحث

اعتمد هذا البحث على المنهج الوصفيّ التّحليليّ بوصفه الأنسب لدراسة التّجربة الشّعريّة لرشيد أيّوب، إذ يقوم هذا المنهج على رصد النّصوص، وتحليلها، للكشف عن أبعادها الفكريّة والجماليّة والفنّيّة.

وقد أتاح هذا المنهج تتبّع مظاهر الظّلم والاستبداد في شعره، وتحليل الرّموز والصّور البلاغيّة التي وظّفها، وربطها بالسّياق السّياسيّ والاجتماعيّ الذي انبثقت منه. كما أسهم في تفسير ملامح الخطاب الشّعريّ المقاوم، واستجلاء الرّؤية الثّوريّة والإنسانيّة التي انطوى عليها، بما يحقّق التّكامل بين تحليل المضمون واستكشاف القيم الفنّيّة والجماليّة للنّصوص.

المبحث الأوّل: بين الأدب المهجريّ والظّلم

أوّلًا: مفهوم الأدب المهجريّ

تعدّ هجرة الأدباء العرب نحو البلاد الغربيّة بمثابة هجرة للأدب في حدّ ذاته، فالأثر الذي تخلّفه الهجرة في الإنسان عامّة والأديب خاصّة مثله مثل ذاك الذي يمسّ الأدب، فتغيّر المكان والبيئة والمعتقدات والعادات له تأثير كبير مباشر على الأديب وبالتّالي على أدبه.

إنّ أدب المهجر "وليد مشرقيّ الملامح والسّمات، عربيّ الأرومة ميراثًا ولغة، حمله ناشئة عرب في ثنايا جوانحهم وهاجروا به إحساسًا وثقافة، ولد في ديار غربة لا تعرف اللّسان العربيّ في مخاطبة أو مدارسة"[2].

وهو "أدب ثقافيّ ناضج تقدّميّ كامل التّفاعل مع الحضارة الأمريكيّة، وهو أدب مشغول بالحياة وجميع مقوّماتها، متفاعل معها غاية التّفاعل وجدانيًّا، وفكريًّا بصورة إيجابيّة، ويمثّله أدب ميخائيل نعيمة وعبد المسيح حدّاد"[3]. وبذور هذا الأدب عربيّة، لكنّ تربته غربيّة، "طاب أصله وسخت عليه تربته المضيفة، فكان الثّمر المتعدّد الطّعوم والرّوائح، والعديد من الاتّجاهات. هاجر في ظروف قاسية محضة، وعاش في بيئة غربيّة، وكتب عليه أن يغالب فيها طوفان العجمة، وصراع المادّيّة بين جلبة الحديد ودخان المصانع، وتعالي الأجناس التي لا يجمعها عرق ولا هدف سوى المغامرة الطّامحة من أجل مستوى مادّيّ أفضل"[4]؛ إذ خاض المهجريّ غمار الحياة في بيئة غريبة، اتّجهت فيها شخصيّته اتّجاهين مغايرين: أحدهما نابع من الوراثة، وممّا حمله من البيئة المشرقيّة، والثّاني ناشئ من فعل وجوده في البيئة المدنيّة، وممارسته لشتّى ألوان الحياةفيها: عادات وتقاليد وأنماط عيش؛ ممّا ولّد في نفسه صراعًا أو غذّى توتّرًا أصيلًا أفضى إلى صراع كانت الحياة موضوعه وهدفه[5].

والأدب المهجريّ حديث النّشأة، نشأ وترعرع ونما وازدهر حتى بلغ مكانة متقدّمة وكوّن جمعيّات أدبيّة، وهيئات فنّيّة غايتها إيجاد الرّابطة بين أبناء العربيّة الوافدين من الأمريكتين، فأنشأ المهاجرون في تلك الدّيار النّائية أدبًا، يعبّرون به عن مشاعرهم وكتبوا شعرًا يصوّرون فيه عواطفهم ومختلف أحاسيسهم وتجاربهم ويتحدّثون فيه عن غربتهم وحنينهم إلى الوطن ويصفون فيه حياتهم وما تعرّضوا له من عناء وشقاء وتجارب مريرة مثيرة، وكان أدبهم هذا هو أدب مدرسة المهجر وشعرهم هو الشّعر المهجريّ، الذي أصبح مدرسة شعريّة من مدارس الشّعر الحديث. وعني به الأدباء والنّقّاد عناية كبيرة[6].

ثانيًا: الأدب المهجريّ بين قسوة الاستبداد العثمانيّ وحنين الحرّيّة

1. منذ أواخر القرن التّاسع عشر، ظهرت جماعات مهاجرة من أبناء البلاد العربيّة، ولا سيّما من لبنان وسوريا، هربًا من جور الأتراك، متمثّلًا ذلك بواقع سياسيّ مرير، "ومن تلك الجماعات المهاجرة، طائفة من الشّباب الذين تتوقّد جوانحهم،

---

[2] . نظمي عبد البديع محمّد، **أدب المهجر بين أصالة الشرق وفكر الغرب**، ص 5.

[3] . محمد عبد المنعم خفاجي، **دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه**، 1/ 326– 327.

[4] . نظمي عبد البديع محمّد، **م. س**.، ص 5.

[5] جورج سعادة، الصّراع بين الرّيف والمدينة في شعر إيليا أبو ماضي، ص 281.

[6] . ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي، **مدارس الشّعر الحديث**، ص 70.

وقلوبهم متوثّبة للحرّيّة، وفي رؤوسهم آفاق رحاب في الفكر النّيّر والخيال الخصب، وأولئك كانوا الرّعيل المثقّف الواعي الذي عزّ عليه أن يعيش أسيرًا للظّلم والعوز، فانطلق يبحث عن الحرّيّة والاكتفاء"[7]. فضلًا عن ذلك، بعض هذا الرّعيل المثقّف "قد نشأوا في عصر بوادر التّحرّر الفكريّ والسّياسيّ والتّفتّح الاجتماعيّ، عندما لم يتسنّ لهم تحقيق ما كان يجيش في نفوسهم الطّامحة من آمال مزهرة آثروا الهجرة"[8].

وكان الحكم العثمانيّ يتميّز بالظّلم والجور والقسوة في معاملة الأهالي مع تردّي إدارة الحكم وفسادها، ويقابله فرض الضّرائب الباهظة على المواطنين العرب والنّعرات الطّائفيّة بين الأهالي[9].

ومن أهمّ تلك الأسباب التي ساعدت على الهجرة، هو ما عملت به الحكومة العثمانيّة على ضغط رعاياها، "ولا سيّما غير المسلمين منهم، والسّبب في ذلك يكون أنّها بضعفها وتهالكها آونة ذاك، كانت تخشى كلّ حرّيّة تحريريّة تبدو بوادرها بين الشّعب، وتحاول خنقها في المهد"[10].

وكلّ هذه الأمور السّياسيّة زادت من عبء المفكّرين والأدباء، وأصبحت الهجرة "إمّا إلى مصر، حيث مجال العمل أوسع وأكثر إظهارًا للكفاءات، وحيث يتمتّع النّاس بحرّيّة أكثر؛ أو إلى أوروبا أو أميركا حيث يتنشّقون عبير الحرّيّة المنعش"[11]. كما أنّ أغلب النّاس الذين هاجروا إلى مصر ما لبثوا أن انتقلوا إلى قارّة أميركا.

إنّ شعر الغربة أوضح دلالة على مسألة الحنين للوطن والشّوق إليه، سواء أكان الحنين المقيم في اغترابه النّفسيّ والزّمانيّ والفكريّ أو في غربته الجسديّة المكانيّة. "والشّوق لهذه الطّبيعة وتصوير عناصرها هو شوق للوطن الذي يبتعد فيه الشّاعر عن الزّمان الحاضر، فيعود للماضي، أو يرنو للمستقبل، أو يغترب في المكان، فيتطلّع من بعيد، ويناجي الوطن"[12].

وقد نتج عن هذه البواعث غربة سياسيّة، وهي تعدّ نوعًا كثير الشّيوع في المجتمعات العربيّة بوجه خاصّ. وتعرّف بأنّها "حالة من الشّعور بعدم الرّضا وخيبة الأمل والانفصال عن القادة السّياسيين والسّياسات الحكوميّة والنّظام السّياسيّ"[13].

وهنا يشعر الإنسان "بعجزه عن المشاركة في الأمور السّياسيّة على الصعيدين الدّاخليّ والخارجيّ، جرّاء السّياسات التّعسّفيّة التي تفرضها السّلطات في الحكم"[14].

وبما أنّ الشّعراء لهم رسالة أمام شعبهم ومصير بلادهم، نرى في أشعارهم مظاهر هذا الدّور بشكل كبير؛ فالغربة السّياسيّة عند الشّعراء هي إحساس الشّاعر الملتزم بالغربة عن حكومته وعن النّظام السّياسيّ، واعتقاده بأنّ سياسة الحكومة يسيّرها آخرون لحساب آخرين، وهو يشعر في هذه الحال، بأنّ المجتمع والسّلطة لا يعنيهما أمره، وبأنّه لا قيمة له في ذلك المجتمع، فهو يميل إلى المشاركة، لأنّ مشاعر اللّاقوّة السّياسيّة تشكّل حواجز نفسيّة تمنعه من المشاركة في أنشطتها المختلفة.

---

[7] . عيسى النّاعوري، **أدب المهجر**، ص 17.

[8] . أميّة حمدان، **الرّمزيّة والرّومانتيكيّة في الشّعر اللّبنانيّ**، ص 33.

[9] . محمّد عبد المنعم خفاجي، **قصّة الأدب المهجريّ**، ص 22.

[10] . إيليّا أبو ماضي، **الأعمال الشّعريّة الكاملة**، ص 4.

[11] . **م. ن.**، ص 4.

[12] . عبد اللّطيف خليفة، **دراسات في سيكولوجيّة الاغتراب**، ص 121.

[13] . طارق محمّد عبد الوهاب، **سيكولوجية المشاركة السياسية مع دراسة في علم النفس السياسي في البيئة العربية**، ص 114.

[14] . علاء زهير الرّواشدة، **الاغتراب السّياسيّ لدى الشّباب الجامعيّ**، ص 217.

ثالثًا: نبذة عن حياة رشيد أيّوب (1871 – 1941)

الشّاعر الدّرويش. وليد بسكنتا، هاجر إلى أمريكا الشّماليّة بعد رحلات قام بها إلى باريس ومانشستر، كانت التّجارة رائدة فيها. ووصل إلى نيويورك بوصول نسيب عريضة إليها عام 1905م، فتعزّزت بالقادمين دولة الأدب. سمّي الشّاعر الشّاكي لكثرة ما شكا الزّمان[15].

هاجر أيّوب من بلدته قبل بلوغه العشرين من عمره، مع بدايات حركة الهجرة من لبنان وسوريّا إلى المهاجر الأميركيّة، فاستقرّ في مدينة «نيو أورلينز» من ولاية لويزيانة، حيث عمل في التّجارة، وكان طوال إقامته في تلك المدينة يحنّ إلى جوّ تتضوّع فيه رائحة الأدب العربيّ، لكنّه لم يجده حيث كان مقيمًا؛ لذلك نزح إلى نيويورك طمعًا بمثل ذلك الجوّ، وهناك سكن في حيّ بروكلن، حيث يسكن معظم المهاجرين، وبقي فيه حتّى قضى نحبه بالغًا من العمر سبعين عامًا.

وفي المهجر الأميركيّ "قامت الرّابطة القلميّة، فإذا قيامها يغدو الحدّ الفاصل في نتاج ثلاثة من شعرائها هم رشيد أيّوب وإيليّا أبو ماضي وندرة حداد"[16].

توفي رشيد أيّوب عام 1941م، ودفن في بروكلن، وقد زوّدنا بثلاث دواوين هي الأيّوبيّات عام 1914 – وأغاني الدّرويش عام 1928م وهي الدنيا عام 1939، قد عرف عن رشيد أيّوب بشاعر المولع والشّاعر الباكي[17].

المبحث الثّاني: مظاهر الظلم في شعر رشيد أيّوب

أوّلًا: تصوير القمع

يُلاحظ المتتبّع لقصائد رشيد أيّوب حضورًا بارزًا وموحّدًا لظاهرة الظّلم والقمع السّياسيّ، حيث تتجلّى نصوصه كمرآة صادقة تعكس مرارة الحياة تحت وطأة الحكم العثمانيّ، وتكشف عن الانتهاكات المستمرّة لحقوق الأفراد والجماعات، وعن حالة الانسداد السّياسيّ والاجتماعي التي عاشها اللّبنانيّون في تلك المرحلة؛ فقد كانت الأحوال السّياسيّة تشجّع على الإحباط واليأس، إذ إنّ "الحكومة زادت في تعسّفها وظلمها للأهالي، وساءت الأحوال الإداريّة، وفرضت الرّقابة الشّديدة على الأفراد والجماعات، ممّا جعل القوم يعيشون وكأنّهم في بوتقة مغلقة على وشك الانفجار"[18].

وفي هذا السّياق، يصبح شعر رشيد أيّوب وسيلة للتّعبير عن الاحتقان السّياسيّ والاجتماعيّ، إذ يعكس الشّاعر من خلال نصوصه إحساس النّاس بالظّلم والاستبداد، ويقدّم نقدًا لاذعًا للسّلطة القائمة، مستعينًا بالصّور الشّعريّة، والرّموز الفنّيّة التي تضفي على قصائده عمقًا إنسانيًّا وفكريًّا.

ويبرز هذا الشّعر موقفًا ثوريًّا، إذ لا يكتفي بوصف القمع بل يستنهض الوعي بالعدالة والحرّيّة، ويجعل من النّصّ الشّعريّ فضاءً نقديًّا يعكس الواقع السّياسيّ والاجتماعيّ للبلاد، ويكشف عن التّوتّر بين الطّموح الوطنيّ، والممارسات الاستبداديّة، فيعكس العلاقة العضويّة بين الشّعر والسّياسة في تجربة رشيد أيّوب الشّعرية؛ يقول:

---

[15] . جورج صيدح، **أدبنا وأدباؤنا**، ص 288.

[16]. ميخائيل نعيمة، **الغربال الجديد**، ص 173.

[17]. ينظر محمّد خفاجي، **مدارس الشعر الحديث**، ص 71.

[18]. نادرة جميل سراج، **شعراء الرّابطة القلميّة، دراسات في شعر المهجر**، ص 42.

تِلْكَ البِلَادُ وَلَيْتَ شِعْـ

ـرِي كَمْ بِهَا مِنْ مُسْتَجِيرِ

يَبْغِي بِهَا الأَتْرَاكُ وَيْحَ الـ

ـظَّالِمِينَ ذَوِي الفُجُورِ[19]

يُجسّد هذا المقطع البعد النّقديّ والسّياسيّ العميق في تجربة رشيد أيّوب الشّعريّة، إذ يعكس بوضوح قسوة الواقع القمعيّ الذي خيّم على لبنان إبّان الحكم العثمانيّ؛ فيفتتح الشّاعر قصيدته بنبرة استغاثيّة مفعمة بالأسى: "وَلَيْتَ شِعْرِي كَمْ بِهَا مِنْ مُسْتَجِيرٍ"؛ ليصوّر مأساة الأهالي الذين أثقلهم القمع والإجراءات التّعسّفية، فيجعل من قصيدته مرآةً صادقةً لمعاناة شعبٍ مغلوبٍ على أمره، يختنق تحت سلطة مستبدّة. غير أنّ توظيفه للأسلوب الاستغاثيّ لا يقف عند حدود الوصف، بل يمنح القصيدة بُعدًا إنسانيًّا عميقًا، يضع القارئ أمام مأساةٍ جماعيّة تتجاوز حدود الزّمان والمكان، حيث يقف الإنسان في مواجهة الاستبداد، باحثًا عن بارقة خلاص تخفّف من وطأته الثّقيلة.

ثم يشير الشّاعر إلى مصدر الظّلم صراحة في عبارة "يَبْغِي بِهَا الأَتْرَاكُ"، موضّحًا دور الاحتلال العثمانيّ، في فرض سياسات استبداديّة صارمة، وفرض الرّقابة المشدّدة على الأفراد والجماعات، وتدهور الأحوال الإداريّة والاجتماعيّة.

بهذه الصّياغة المباشرة، يضع أيّوب القارئ أمام حقيقة سياسيّة واضحة، إذ لا يترك مجالًا للغموض حول المسؤول عن القمع، ويعكس بذلك وعيه التّاريخي والسّياسيّ تجاه واقع وطنه.

أمّا التّعبير "وَيْحَ الظَّالِمِينَ ذَوِي الفُجور" فيضفي بعدًا أخلاقيًّا ونقديًّا على القصيدة، حيث يربط الشّاعر بين الظّلم والاستبداد من جهة، والفجور الأخلاقيّ والفساد من جهة أخرى، مؤكّدًا على أنّ القمع ليس مجرّد ممارسة سياسيّة، بل هو فعل ينتهك القيم الإنسانيّة ويستهدف كرامة الفرد والمجتمع. ومن هنا، يتجلّى بوضوح البعد الاجتماعيّ والشّعوريّ للشّعر، إذ تعكس القصيدة التّوتر بين الطّموح الوطنيّ لشعب مقهور، وبين السّلطة المستبدّة التي تحاول إخضاعه بالقوّة والهيمنة.

ومن النّاحية الفنّيّة، يوظّف المقطع عناصر بلاغيّة متقنة، من استغاثة، وصور حادّة، وإيقاع داخليّ يعتمد على التّكرار والتّتابع بين الكلمات المحوريّة "الأتراك – الظّالمين – ذوي الفجور"؛ ليعزّز وقع الظّلم على القارئ، ويخلق إحساسًا بالضّغط النّفسيّ الذي عاش اللّبنانيّون به في ذلك العصر؛ وبهذا الأسلوب، يجمع الشّاعر بين الموقف السّياسيّ والنّقد الاجتماعيّ والبعد الإنسانيّ، فيجعل القصيدة شعريّة وسياسيّة في آن واحد، ويبرز قدرة الشّعر على التّعبير عن المأساة الجماعيّة، وتحويل الألم الفرديّ والجماعيّ إلى وعاء فنّيّ، يُظهر الواقع السّياسيّ والاجتماعيّ، بصدق وبلاغة.

كما يمكن قراءة هذا المقطع ضمن سياق أوسع لتجربة رشيد أيّوب الّذي وظّف شعره لنقد السّلطة، وممارسات القمع المختلفة، سواء على المستوى السّياسيّ أم الاجتماعيّ؛ لتصبح القصيدة أداة للتّوعية والانتصار للعدالة، وهو بذلك يمثّل نموذجًا للشّعر المقاوم الجامع بين الحسّ الوطنيّ والوعي الإنسانيّ، والفنّ الجماليّ، مؤكّدًا أنّ الشّعر أداة نقديّة وسياسيّة، يمكنها فضح الظّلم، وكشف القهر والاستبداد؛ وفي قصيدة أخرى يقول:

[19]. رشيد أيّوب، **الأيّوبيّات**، ص 101.

دَوْلَةٌ قَدْ حَسِبُوهَا فِي الوَرَى ذَاتَ بَطْشٍ فَإِذَا الشَّحْمُ وَرَم
فِي صِبَاهَا لَمْ نَرْجُ نَفْعَهَا كَيْفَ يُرْجَى نَفْعُهَا بَعْدَ الهَرَم[20]

وفي هذه القصيدة، يصوّر الشّاعر السّلطة على أنّها ذات بطش واستبداد، تفرض سيطرتها بالقهر، وتستنزف طاقات وموارد الشّعب من دون أن تعود عليه بالنّفع؛ فعبارة "ذَاتَ بَطْشٍ" تضع القارئ أمام إدراك حجم الاستبداد وانعدام العدالة، ويظهر البيت الشّعريّ "فَإِذَا الشَّحْمُ وَرَم، كَيْفَ يُرْجَى نَفْعُهَا بَعْدَ الهَرَم" أثر تلك السياسات التّعسفيّة في المجتمع بأسره، حيث تتحوّل الطّاقات والمقدّرات الوطنيّة من وسائل للنّماء والتّنمية إلى أدوات استنزاف وإفقار، فتبدو الدّولة عاجزة عن تحقيق أيّ منفعة حقيقيّة لشعبها.

ويستكمل الشّاعر نقده في قوله: "دَوْلَةٌ قَدْ حَسِبُوهَا فِي الوَرَى"، إذ يشير إلى الازدواجيّة بين المظهر والقوّة الفعليّة للدّولة، فربّما كانت محلّ تقدير ظاهريّ لدى، لكنّها في الواقع عاجزة عن الوفاء بمسؤوليّاتها تجاه المواطنين، كما أنّها لا تحمي حقوقهم أو تقدّم لهم أيّ خدمة تُذكر؛ أمّا خاتمة المقطع "فِي صِبَاهَا لَمْ نَرْجُ نَفْعَهَا" تؤكّد إحباط المواطنين وانكسارهم أمام استبداد السّلطة، في مشهد شعوريّ يعكس الإحساس الجماعيّ بعدم جدوى الدّولة وغياب العدالة؛ فتصبح القصيدة موقفًا سياسيًّا واجتماعيًّا وإنسانيًّا في آنٍ واحد.

إذن، يدمج الشّاعر بين وصف القمع واستدعاء أثره النّفسيّ والاجتماعيّ، فيخلق قصيدة تجمع السّياسة والمأساة الإنسانيّة، وتبرز تأثير السّلطة في الفرد والمجتمع، كما تعكس دور الشّعر كأداة نقديّة، قادرة على فضح القمع واستنطاق الواقع السّياسيّ والاجتماعيّ، وتقديم رؤية أخلاقيّة وسياسيّة؛ فهو ليس مجرّد تجربة جماليّة، بل موقفًا واعيًا، ومرآة حيّة، لمعاناة الشّعب اللّبنانيّ تحت الحكم العثمانيّ.

ثانيًا: تصوير سياسة التّجويع في شعر رشيد أيّوب

كانت بلادُ الشّام في القرن التّاسع عشر مجتمعًا زراعيًّا في جوهره، حيث شكّلت الأرض المصدر الرّئيس لمعيشة الغالبيّة العظمى من السكّان. غير أنّ الفلّاحين اعتمدوا على أساليب يدويّة بدائيّة في الزّراعة، وطرق ريّ تقليديّة عفا عليها الزّمن، فأدّى إلى تراجع مساحات الأراضي الصّالحة للزّراعة، وضعف إنتاجيّتها[21].

وزاد الأمر سوءًا أنّ الحكم العثمانيّ لم يسعَ إلى تطوير القطاع الزّراعيّ أو تحديثه، بل اعتمد – في كثير من الأحيان – سياسةً قاسيةً يمكن وصفها بسياسة التّجويع الممنهَج، من خلال فرض الضّرائب الباهظة واستنزاف خيرات الأرض من دون مقابل إصلاحيّ يُذكَر؛ وفي ظلّ هذه الظّروف، أحكم الإقطاعيّون سيطرتهم على معظم الأراضي الزّراعيّة، وحرموا الفلّاحين من الانتفاع بها أو امتلاكها؛ فكان الفلّاح "عرضة لظلم صاحب الأرض من أصحاب الإقطاعات، ويستبيح أتعابه، ويصدّه عن التّقدّم في المجتمع، فكان هنالك التّفاوت من الوجهة الاقتصاديّة، وعدم المساواة من الوجهة الاجتماعيّة"[22].

---

[20] . **م. ن.**، ص 204.

[21] . انظر: إحسان عباس ومحمّد يوسف نجم، **الشّعر العربيّ في المهجر**، ص 14.

[22] . أوغست أديب باشا، **لبنان بعد الحرب**؛ تر فؤاد حبيش، ص 401.

وهكذا تضافرت عواملُ الإهمال العثمانيّ، والظّلم الإقطاعيّ؛ لتعمّقَ الفجوة بين الطّبقات، وتُبقي الفلّاحين أسرى الفقر والحرمان، لعقودٍ طويلة؛ يقول رشيد أيوب:

أَلْبُنَانُ أَهْوَالُ الحُرُوبِ فَظِيعَةٌ
وَلَكِنَّ هَوْلَ المَوْتِ بِالجُوعِ أَفْظَعُ
سَلَامٌ عَلَى لُبْنَان وَالجَبَلُ الذِي
بَكَاهُ النَّدَى وَالمُسْتَجِيرُ المُرَوَّعُ[23]

تظهر هذه القصيدة مدى القسوة التي مارستها السّلطة العثمانيّة على لبنان، مركّزة على سياسة التّجويع كأداة رئيسة للسّيطرة على السّكّان وإخضاعهم؛ ففي البداية، يبرز الشّاعر حجم المعاناة النّاتجة عن الحروب المتتالية في البلاد، غير أنه يفصل بين عنف الصّراع المسلّح، وما أسفر عنه من مآسٍ اقتصاديّة واجتماعيّة، مؤكّدًا أنّ "الموت بالجوع" كان أشدّ فظاعةً من آثار الحرب نفسها.

هذا التمييز يعكس وعي الشّاعر بالآثار المترتّبة على سياسات الاستبداد، حيث عمدت السّلطة إلى القهر العسكريّ والسّيطرة السّياسية، فطالت حياة النّاس اليوميّة، وحرمتهم من أبسط مقوّمات البقاء، فتحوّلت المجاعة إلى أداة سياسيّة منهجيّة؛ لإضعاف المجتمعات وكسر مقاومتها.

وتبرز القصيدة التّأثير النّفسيّ والاجتماعيّ، لهذه السّياسات في وصف الجبال اللّبنانية التي "بَكَاهَا النَّدَى"؛ وكأنّ الطّبيعة نفسها تشارك في التّعبير عن مأساة الشعب؛ أمّا وصف "المُسْتَجِير المُرَوَّع" فيصوّر حجم الخوف والرّعب الذي أصاب الأفراد، نتيجة القمع الممنهج وسلب الأمن الغذائيّ؛ ليظهر أنّ سياسة التجويع كانت جزءًا من استراتيجيّة شاملة، للهيمنة على السّكّان وإخضاعهم للسّلطة العثمانيّة.

من جهة ثانية، يوظّف الشّاعر التّضادّ بين "أَهْوَال الحروب"، و"الموت بالجوع"؛ ليكثّف وقع التّجربة على المتلقّي، معزّزًا فهم القارئ بأنّ القمع الاقتصاديّ والحرمان من الغذاء كان أشدّ تأثيرًا على حياة النّاس من الحرب نفسها؛ كما يشير هذا التّضادّ إلى البعد الأخلاقيّ للقهر، إذ يحثّ القارئ على إدراك الظّلم الواقع على المجتمع؛ فيتّضح لنا أنّ الشّعر أداة كشف ومعارضة سياسيّة، تتجاوز التّعبير الفنّيّ إلى فضاء شعوريّ وفكريّ ينقل الواقع الاجتماعيّ والإنسانيّ تحت سلطة القمع.

بهذا المعنى، يقدّم لنا رشيد أيّوب صورة شاملة لسياسة القمع العثمانيّة، مركّزًا على التّجويع كوسيلة لإخضاع الشّعب، ويبرز الشّعر كوسيلة مقاومة تجسّد وعي الشّاعر الاجتماعيّ والسّياسيّ، وتؤكّد قدرة الشّعر على توثيق التّجربة التّاريخيّة، ونقل مأساة الوطن ومأساته اليوميّة، في إطار فنّيّ يمتزج فيه النّقد السّياسيّ بالبعد الإنسانيّ، والبعد الجماليّ للشّعر؛ ويقول في قصيدة أخرى:

لَمْ يُبْقِ فِيهَا الحُزْنُ مِنْ
رَمَقٍ سِوَى الرَّمَقِ الأَخِيرِ
ومُطَأْطِئِينَ رُؤُوسَهُمْ

[23] رشيد أيّوب، **الأيّوبيّات**، ص 187.

خُمُصَ البُطُونِ بِلَا نَصِيرِ

عَافُوا الحَيَاةَ وَأَصْبَحُوا

حُسَّادَ سُكَّانِ القُبُورِ[24]

يقدّم رشيد أيّوب تصويرًا شعوريًّا مؤثّرًا، لواقع اللّبنانيّين تحت القمع العثمانيّ، مركّزًا على الجوع والفقر المدقع، كوسائل للسّيطرة على السّكّان وإخضاعهم؛ فيصف الحزن واليأس الذي بلغ ذروته، إذ لم يُبقَ للنّاس سوى "الرَّمَق الأخير"، في تصوير يشير إلى الفقر المدقع والجوع الذي حاصر المواطنين، وجعل حياتهم مرهونة بالحرمان، معبّرًا عن حجم المعاناة التي يمرّ بها المجتمع، نتيجة السّياسات الاستبداديّة التي تمارسها السّلطة.

ويؤكّد الشّاعر على أثر التّجويع على الكرامة الإنسانيّة من خلال تصوير النّاس، وهم "مُطَأْطِئين رُؤوسهم" و"خُمُصَ البُطُون بلا نصير"، أي أنّهم أصبحوا عاجزين عن الدّفاع عن أنفسهم، أو الحصول على ما يسدّ رمقهم، فقد عانوا و"عافوا الحياة"، فضغوط الجوع والفقر جعلتهم بلا رغبة في الحياة الطبيعيّة، حتّى وصل الأمر إلى فقدان الأمل وانكسار الإرادة.

ويتجلّى البعد الأخلاقيّ في قوله: "وأصبحوا حسّاد سكان القبور"، إذ يشير إلى أنّ شدّة المعاناة والفقر أقامت بينهم عداء داخليًّا، وحقدًا متبادلًا، بحيث لم يعد لديهم أي شعور بالتّضامن، أو الأمل، وبدل أن يسود التّعاون، يسود التّنافس على البقايا البسيطة، في تصوير شعوريّ واقعيّ، لآثار القمع الاقتصاديّ، والاجتماعي على المجتمع.

كما يوظّف الشّاعر التّكرار والتّركيب التّصويريّ؛ ليبرز الدّمار النّفسيّ والجسدي الذي لحق بالسّكّان، فيدمج بين الصّور الواقعيّة، والصّور المجازيّة؛ ليؤكّد مأساة الجوع والتّجويع كأدوات قهر، فتظهر السّلطة العثمانيّة في القصيدة كقوّة مستبدّة تعتمد على الحرمان الاقتصاديّ، والضّغط النّفسيّ؛ لإخضاع الشّعب وكسر مقاومته.

هذا وتبرز هذه القصيدة البعد الإنسانيّ للشّعر، إذ يجعل القارئ يعيش مع المواطن المقهور تجربة الفقر، واليأس، والخوف؛ فأضحت وسيلة نقديّة، واجتماعيّة، وسياسيّة، توثّق الواقع التّاريخيّ، وتكشف عن حجم القمع الذي عانى منه اللّبنانيّون، فتؤكّد قدرة الشّعر على الجمع بين الموقف السّياسيّ، والبعد الاجتماعيّ، والبعد الإنسانيّ، والفنّيّ في آن واحد.

المبحث الثّاني: الثّورة ضدّ الظّلم في شعر رشيد أيّوب

أوّلًا: المطالبة بالحرّيّة

إنّ الشّعوب لا تدخل أتون الثّورات عبثًا، بل تبني حراكها الثوريّ على معطياتٍ سياسيّةٍ واقتصاديّةٍ واجتماعيّةٍ، تراكمت عبر عقودٍ من القهر والتّهميش، حتّى تبلغَ مرحلةً من النّضوج لا يعود معها ممكنًا التّغاضي عن مظالم السّلطة، أو محاولة مداراتها.

ففي بلاد الشّامّ، ومع سياسة التّجويع العثمانيّة، وهيمنة الإقطاعيّين على الأرض، واستئثارهم بخيراتها، بات الفلّاح عرضةً لكلّ أشكال الظّلم الاقتصاديّ والاجتماعيّ، محرومًا من حقوقه، مسحوقًا تحت وطأة الضّرائب والاستغلال، لا يملك من أمره شيئًا سوى أن يكدح؛ ليبقى على قيد الحياة.

وإزاء هذا الواقع القاتم، لم يكن مستغربًا أن ترتفع الأصوات لاحقًا، وفي طليعتها رشيد أيّوب، داعيةً إلى التّحرّر والخلاص، إذ غدت الحاجة ملحّةً إلى تحوّلٍ نوعيّ، يستعيد للشّعب كرامته، وحقّه في الوجود، ويؤكّد مرجعيّته في الشأن العامّ بعد أن

[24] . م. ن.، ص 100.

ظلّ ردحًا طويلاً مسلوب الإرادة تحت قمع السّلطات وأجهزتها الأمنيّة. فالحريّة "لا تعني سوى التّحرّر من الكبح الذي لا مبرّر له، أي القدرة على التّنقّل والتّجمّع للمطالبة بالحقوق، والتّحرّر من الحاجة والخوف"[25]، وهي في جوهرها دعوة إلى إعادة تشكيل العلاقة بين الحاكم والمحكوم، على أسسٍ من العدالة والكرامة الإنسانيّة، بعيدًا عن الاستبداد والحرمان؛ يقول رشيد أيوب:

جَرِّدُوا السَّيْفَ فَقَدْ مَلَّ القَلَم ... خُلِقَ السَّيْفُ لِتَحْرِيرِ الأُمَم

وَاجْتَنُوهَا فُرْصَةَ الدَّهْرِ التِي ... ليس يُجْدِيكُمْ إِذَا فَاتَتْ نَدَم

وَانْبُذُوا الأَتْرَاكَ عَنْكُمُ فَهُم ... كَالأَفَاعِي فِيكُمُ تَنْفُثُ سَمّ[26]

بالنّظر إلى ما سبق، من واقع القهر الاجتماعيّ والاقتصاديّ الذي فرضه الحكم العثمانيّ، يمكن القول إنّ هذا المقطع الشّعريّ لرشيد أيوب يمثّل ذروة الوعي الثّوريّ الذي تجاوز مجرّد الشّكوى إلى الدّعوة الصّريحة إلى التّحرّر والانعتاق؛ ففي قوله: "خُلِقَ السَّيْفُ لِتَحْرِيرِ الأُمَم" تتجلّى رؤية الشّاعر أنّ الظّلم بلغ حدًّا لم يعد ينفع معه القلم أو المفاوضات، وأنّ السّيف – بما يحمله من رمزيّة القوّة والحسم – هو الوسيلة الوحيدة، لتحرير الشّعوب من استبدادٍ استنفد كلّ فرص الإصلاح.

ويأتي التّحذير في قوله: "ليس يُجْدِيكُمْ إِذَا فَاتَتْ نَدَم"؛ ليؤكّد أنّ التّردّد في مواجهة الاستبداد لن يورثَ سوى الحسرة حين تفوت الفرصة التّاريخيّة للتّحرّر؛ وكأنّ الشّاعر يحمّل المسؤوليّة للأمّة إذا ظلّت خانعةً مستسلمة؛ لأنّ الظّلم لا يرحم المتخاذلين. أمّا تصويره الطغيان في قوله: "كَالأَفَاعِي فِيكُمُ تَنْفُثُ سَمّ"، فهو استعارةٌ قويّة تكشف كيف يتحرّك الاستبداد في جسد الأمّة ببطءٍ ودهاء، سامًّا حياتها بالذّلّ والجوع، ومحوّلاً أرضها إلى مرتعٍ للخوف والحرمان.

ويبلغ الخطاب ذروته في الأمر المباشر: "جَرِّدُوا السَّيْفَ فَقَدْ مَلَّ القَلَم"، حيث يتجلّى نفاد صبر الشّاعر من الخطابات والمطالبات السّلميّة التي لم تُجدِ نفعًا؛ ليدعو صراحةً إلى الثّورة المسلّحة، وقوله: "وَاجْتَنُوهَا فُرْصَةَ الدَّهْرِ" يُبرز أنّ اللّحظة الثّوريّة نادرة وثمينة، ولا يجوز للأمّة أن تضيّعها؛ لأنّها إن ذهبت فلن تعود، ثمّ يحسم الموقف في دعوته الصّريحة: "وَانْبُذُوا الأَتْرَاكَ عَنْكُمُ"، إذ يرى أنّ الأتراك رمزٌ للاستبداد والقهر، وأنّ التحرّر لا يكتمل إلّا برفض هيمنتهم، وقطع كلّ صلةٍ بالسّلطة التي مثّلت أداة القمع والاستغلال.

وبذلك، يتكامل المقطع مع السّياق التّاريخيّ والاجتماعيّ الذي مهّد له؛ ليجعل من صوت رشيد أيّوب صرخةً ثوريّةً تستنهض الهمم وتطالب بالخلاص، رابطًا بين واقع القهر وسياسة التّجويع العثمانيّة من جهة، وضرورة الثّورة والتمرّد من جهة أخرى؛ إذ يتابع:

أنتُم الأعراب أبناء الأولى ... خُلِقَ السيف لهم منذُ القِدَمِ

وعلوا في الكون حتى وطئت ... لهمُ في ساحةِ العليَا قَدَم

يا لقومي أنتمُ أُسد الشّرَى ... أفما أُسد الشرى تحمي الأجم[27]

---

[25]. إبراهيم المدهون وآخرون، **ثورات قلقة: مقاربات سوسيو استراتيجية للحراك العربي**، ص 257– 258.

[26] . رشيد أيّوب، **الأيّوبيّات**، 200– 201.

[27] . **م. ن.**، ص 203.

فيتابع رشيد أيّوب دعوته الصّريحة إلى الثّورة والتّحرّر، لكنّه يربطها هنا بالهويّة العربيّة وبالأمجاد التّاريخيّة؛ ليمنح دعوته بعدًا حضاريًّا وأخلاقيًّا يتجاوز مجرّد مقاومة الاستبداد العثمانيّ إلى استعادة المكانة والكرامة للأمّة بأسرها؛ ففي قوله: "أَنْتُمُ الأَعْرَابُ أَبْنَاءُ الأُولَى" استحضار سلسلة الأجداد الذين ملأوا الدّنيا فخرًا ومجدًا، مشيرًا إلى أنّ الأحفاد ورثةُ بطولاتٍ عظيمة، وأنّ خمولهم خيانةٌ لذلك الإرث. ويجعل ذلك أوضح في تصويره علوّ الأمّة: "وَعَلُوا فِي الكَوْنِ حَتَّى وَطِئَتْ"، حيث يلمّح إلى مراحل تاريخيّة بلغت فيها الحضارة العربيّة ذروتها، حتّى صارت مناراتها تطأ مشارق الأرض، ومغاربها علمًا ومجدًا.

ويذكّر الشّاعر في قوله: "خُلِقَ السَّيْفُ لَهُمْ مُنْذُ القِدَمِ" أنّ القوّة والبطولة رافقت العرب منذ الجاهليّة والإسلام، وأنّ سلاحهم لم يكن أداة بطشٍ عشوائيّ، بل أداة لتحرير الأرض وصون الكرامة. ويؤكّد ذلك في قوله: "لَهُمُ فِي سَاحَةِ العَلْيَا قَدَم" حيث يحضر التّاريخ المجيد الذي وضع العرب في مقدّمة الأمم، قادةً للحضارة وحماةً للقيم العليا.

ويختتم بالنّداء المجلجل: "يَا لقَوْمِي أَنْتُم أُسْدُ الشَّرَى"؛ ليعيد بناء الثّقة بالذّات العربيّة ويؤكّد أنّ الثورة ليست خروجًا على التّاريخ، بل استئنافٌ لمسيرة المجد التي انقطعت تحت وطأة الاستبداد؛ لذلك أتت صيحته الاستفهاميّة: "أَفَمَا أُسْدُ الشَّرَى تَحْمِي الأجم"؛ لتوبّخ القوم على صمتهم وخنوعهم، فأسود الشرى – رمز الشّجاعة والقوّة – تركت عرينها بلا حماية، وتستنهض الشّهامة العربيّة، وتذكّر بأنّ سبب الاستبداد ضعفُ الأمّة، فما كان ليتغلغل لولاه.

بهذه القصيدة، يمزج رشيد أيّوب بين الوعي الثّوريّ والدّعوة إلى التّحرّر من سلطة العثمانيّين، وبين استنهاض الهمّة العربيّة الأصيلة، مذكّرًا بأنّ الكرامة القوميّة، والتّحرّر السّياسيّ وجهان لعملة واحدة.

ثانيًا: الدّعوة إلى التّفاؤل

ولكن، على الرّغم مما عاشته الأمّة في عهد الحكم العثمانيّ، من قهرٍ واستبدادٍ وتجويعٍ وحرمان، ظلّ في وجدانها قبسٌ من الأمل أنّ فجر الحرّيّة آتٍ لا محالة، وأنّ الحقّ، مهما اغتُصب، سيعود إلى أصحابه. وهذا ما عبّر عنه رشيد أيّوب في أشعاره الثّوريّة، إذ لم يقف عند حدود تصوير المأساة أو تسجيل القهر، بل جعل من قصائده منابر للأمل، يوقظ بها الضّمائر، ويستنهض العزائم، ويؤكّد أنّ الثّورة لا بدّ أن تنفجر، وأنّ الشّعوب مهما طال صمتها لا يمكن أن تُسلِم رقابها للظّلم إلى الأبد؛ لأنّ روح الكرامة الكامنة فيها قادرة على إشعال فجر جديد، يعيد إليها مكانتها ومجدها؛ يقول:

حتى يجيء زمَانٌ

حرٌّ كريمُ السّجايَا

العُربُ فيه ملوكٌ

والتركُ فِيه رعايا[28]

في هذا المقطع، ينتقل رشيد أيّوب من لهجة الثّورة الغاضبة التي سادت مقاطعه السّابقة إلى خطابٍ يحمل بُعدًا إنسانيًّا وتاريخيًّا أكثر تفاؤلًا، إذ يصوغ رؤيته لمستقبلٍ يتحقّق فيه العدل والحرّيّة بعد عقودٍ من القهر العثمانيّ؛ فقوله: "حرّ كريم السّجايا" يرسم صورة العربيّ المتحرّر من قيود الاستبداد، العربيّ الذي لا يثور من أجل الخبز وحده، بل لأنّ في طبعه أصالةً وكرامةً تأبى الضّيم، وكأنّ الشّاعر يحدّد ملامح القائد الجديد الذي سيحمل مشعل النّهضة.

[28] . م. ن.، ص 220.

ويأتي التّحوّل الدّراماتيكيّ في قوله: "والتّرك فيه رعايا"، حيث ينقلب المشهد رأسًا على عقب؛ فبعد أن كان العرب تحت نير الحكم العثمانيّ، يتخيّل الشّاعر زمنًا يصبح فيه الأتراك هم الرّعايا، والعرب أصحاب القرار والسّيادة، في رمزيّةٍ تحمل دلالات عميقة على زوال الظّلم، وانتهاء عهدٍ طويل من القمع والتّبعيّة.

ويتبلور هذا التّفاؤل في البيت المحوريّ: "حتّى يجيء زمان / العرب فيه ملوك"، حيث يتنبّأ رشيد أيّوب بتحرّرٍ سياسيّ، ويتخيّل نهضةً شاملةً يعيد فيها العرب بناء دولتهم، ويستعيدون أمجاد أسلافهم الذين قادوا الحضارة في عصورٍ غابرة. إنّه زمن التّحرّر والكرامة، زمن استعادة السّيادة، وبعث الرّوح العربيّة من جديد بعد طول خضوعٍ واستكانة.

بهذه الرّؤية، يوازن رشيد أيّوب بين الغضب الثّوريّ الذي رأيناه في قصائده السّابقة، وبين الأمل العميق بمستقبلٍ تتحقّق فيه الحرّيّة والعدالة، فيصبح شعره في الوقت ذاته صرخةً في وجه الظّلم وبشارةً بانتصار الحقّ على الباطل. إنّه يقين الشّاعر أنّ عجلة التّاريخ لا تتوقّف، وأنّ لحظة التّحوّل قادمةٌ مهما طال ليل الاستبداد.

خاتمة البحث

أسفرت الدّراسة عن مجموعة من النّتائج الجوهريّة التي توضّح الأبعاد الفكريّة والجماليّة في تجربة رشيد أيّوب الشّعريّة، خصوصًا في تصويره لقضيّة الظّلم؛ فقد تبيّن أنّ أيّوب لم يكتف بوصف مظاهر الظّلم والاستبداد بوصفها وقائع تاريخيّة وسياسيّة، بل عمد إلى تجسيدها شعريًّا من خلال رؤيته النّقديّة العميقة التي تمزج بين الأبعاد السّياسيّة والاجتماعيّة، والبعد الإنسانيّ الثّوريّ، فشكّل شعره منبرًا لمقاومة القهر والدّعوة إلى الحرّيّة والكرامة الإنسانيّة؛ وقد ظهرت هذه القدرة على الرّصد والتّعبير عن الظّلم في تصويره للحرمان الاجتماعيّ، والقهر السّياسيّ، والانتهاكات التي عاشتها الشّعوب العربيّة تحت الحكم العثمانيّ، بأسلوب يمزج بين التّصوير الواقعيّ والإبداع الفنّيّ، بحيث تتحوّل القصائد الشّعريّة إلى خطاب مقاوم متكامل الأبعاد.

ومن النّتائج المهمّة أيضًا أنّ أيّوب، على الرّغم من الظّلاميّة التي طغت على الواقع الذي صوّره، لم يفقد الرّؤية التّفاؤليّة، بل ظلّ يؤمن بقدرة الشّعوب على النّهوض، واستعادة إنسانيّتها، والتّغلّب على الاستبداد بالقوّة الأخلاقيّة، والفكريّة قبل القوّة المادّيّة. وهكذا، يصبح الشّعر عنده أداة للتّحفيز والتّثقيف، ومجالًا لإعادة بناء الوعي الجمعيّ، بما يعزز أبعاد الكرامة والحرّيّة، ويؤكّد على الدّور الإنسانيّ، والتّحرّريّ للأدب. بهذا، يتكامل في شعر رشيد أيّوب البُعدان السّياسيّ والجماليّ، ليشكّلا معًا نصًّا شعريًّا ثريًّا يزاوج بين المقاومة والتّوثيق، بين الألم والأمل، بين الوعي الثّوريّ والحلم الإنسانيّ بمستقبلٍ أكثر عدلًا وحرّيّة.

أمّا الإضافة النّقديّة لهذا البحث فتتمثّل في الكشف عن التّفاعل العميق بين البنية الفنّيّة والبعد الفكريّ في شعر أيّوب، وإبراز كيفيّة توظيفه للرّموز والصّور البلاغيّة، لبناء خطاب مقاوم، يجمع بين حرارة الموقف الثّوريّ، وجماليّة التّعبير الفنّيّ، فيتوسّع فهمنا لدور الشّعر في مواجهة الظّلم، والتّحدّيات التّاريخيّة والاجتماعيّة.

كما يقدّم البحث إطارًا منهجيًّا لمقاربة شعر المقاومة بشكل يعكس التّوازن بين التّحليل النّصّيّ والقراءة السّياقيّة، فيسهم في إثراء الدّراسات النّقديّة للشّعر العربيّ في فترات التّحوّلات السّياسيّة والاجتماعيّة الكبرى، ويجعل من تجربة أيّوب نموذجًا لفهم العلاقة بين الشّعر والالتزام الإنسانيّ والسّياسيّ.

المصادر والمراجع

- أيّوب (رشيد). **الأيّوبيّات**. لا ط. بيروت: دار صادر دار بيروت، ١٩٥٩م.
- جميل سراج (نادرة)، **شعراء الرّابطة القلميّة، دراسات في شعر المهجر**. مصر: دار المعارف، 1964م.
- حمدان (أمية). **الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني**. لا ط. بغداد: دار الرشيد، 1981م.
- خليفة (عبد اللطيف). **دراسات في سيكولوجية الاغتراب**. ط 1. القاهرة: دار غريب، 2003م.
- زهير الرواشدة (علاء). "الاغتراب السّياسيّ لدى الشّباب الجامعيّ"، **المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعيّة**، المجلّد 4، العدد 3، 2011م.
- سعادة (جورج). **الصّراع بين الرّيف والمدينة في شعر إيليا أبو ماضي**. ط 1. بيروت: دار الحداثة، 2002م.
- صيدح (جورج). **أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركيّة**. ط 4. لبنان: مكتبة السائح، 1999م.
- عبد البديع محمّد (نظمي). **أدب المهجر بين أصالة الشرق وفكر الغرب**. لا ط. القاهرة: دار الفكر العربي، 1976.
- عبد المنعم خفاجي (محمّد). **مدارس الشعر الحديث**. ط 1. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1991.
- عبد المنعم خفاجي (محمّد). **دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه**. القاهرة: مكتبة الأزهر، 1977م. الجزء الأوّل.
- عبد المنعم خفاجي (محمّد). **قصة الأدب المهجري**. ط2. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1973م.
- أبو ماضي (إيليّا). **الأعمال الشّعريّة الكاملة**. ط 1. بيروت: دار عودة، 2004م.
- محمّد عبد الوهاب (طارق). **سيكولوجية المشاركة السياسية مع دراسة في علم النفس السياسي في البيئة العربية**، القاهرة: دار غريب، 2000م.
- المدهون (إبراهيم) وآخرون. **ثورات قلقة:** مقاربات سوسيو استراتيجية للحراك العربي. ط 1. بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإنساني، 2012م.
- النّاعوري (عيسى). **أدب المهجر**. ط 3. القاهرة: دار المعارف، 1966.